

في الدفاع عن نهج البلاغة و الرد على شبهات الدكتور شوقي ضيف

تورج زيني وند^١

تاريخ الوصول: ١٤٣٠/١٠/٢١

تاريخ القبول: ١٤٣١/٥/٤

لقد ذهب الدكتور شوقي ضيف في بعض آثاره، إلى أنّ نهج البلاغة من عمل الشريف الرضيّ و صنعه، لا من وضع الإمام عليّ (عليه السلام) و هو يعتمد في هذه العقيدة المتذبذبة على أدلة من داخل نهج البلاغة و من خارجه لإثبات مدّعا، بل شبهاته.

التكته الهامة التي يستنتجها المؤلف و يصرح بها تصرّيحاً، هي أنّ أكثر خطب نهج البلاغة موضوع و محمول على الإمام (عليه السلام) ولهذا فإنه لا يرى الإعتماد على هذا الكتاب أمراً صحيحاً بل يعتقد بالرجوع إلى المصادر الأولى.

إنّ الكاتب لهذا المقال حاول أن يدخل في صميم آراء شوقي ضيف و صلبها، ليرسم تصويراً واضحاً من حقيقة نهج البلاغة و آراء الدكتور شوقي. الطريق الذي سلكه ضيف في ضوء المنهج الديكاريّ المعروف، يمتاز بالشك و التناقض و الحيرة و التّشاؤم و سوء الظنّ والخصومة والعصبية بلا حجج معتمدة.

الكلمات الرئيسية: نهج البلاغة، شوقي ضيف، الإنتحال.

١. أستاذ المساعد، جامعة الرازي كرمانشاه.

تمهيد

لم يكن التشكيك من قبل بعض المتأخرين أو المحدثين أو المستشرقين، مقتصرًا على الشعر الجاهلي وحده، بل تسربت هذه الفتنة الكبرى إلى كل ما يمت إلى الأدب العربي والثقافة الإسلامية بصلة و شملت جميع تراث هذه الأمة. فهذه المأساة الثقافية أخذت تشمل ما روي عن النبي (ص) و أهل بيته الطاهرين (عليهم السلام) دون التمييز والإعتدال. و ما كانت النتيجة التي تمخضت عنها إلا التفرقة والحيرة والإضطراب و الاختلاف فيما روي عن روّاد الحضارة الإسلامية.

وليس معنى هذا كله أننا ننكر الوضع أو الإنتحال في التراث العربي والإسلامي بل نقصد من هذا البحث أن الدراسة فيما يرتبط بتراث هذه الأمة، تحتاج إلى العلم، و التنقيب، والدقة، والحياة.

و هذا هو الأستاذ «ليب بيضون»، مؤلف «تصنيف نهج البلاغة»، يؤيد رأينا قائلاً:

«و من المؤكد أنهم [المستشرقين] لم يقوموا بهذه المهمات الجسام إلا لتقديرهم لقيمة هذه الكتب و قيمة ما تنطوي عليه من علوم و معارف و أفكار و مبادئ... بيد أن هذا لم يخل من التحرف المقصود لبعض الأفكار و من التشكيك المتعمد في بعض المبادئ، كجزء من الخطة التي يعمل الغرب على تحقيقها، و هي تجميع تراثنا الفكري والحضاري و قطع الصلة بيننا و بينه، حتى ننفذ أيدينا من أي محتوى حضاري و تاريخي، قد يكون ركيزة لنا يوماً من الأيام إلى نهضة مشرفة شاملة.

إن أعمال هؤلاء المستشرقين و أمثالهم على جانب كبير من السوء و الخطر، بيد أن التبعة في ذلك علينا أكبر و أمر؛ لأن الإهتمام بتراثنا و المحافظة

عليه هو من واجباتنا الأساسية، و لو كنا قمنا بذلك لما فسحنا المجال لغيرنا للتلاعب والعبث بتراثنا و تشويه حقائقنا و معتقداتنا (بيضون، ١٤٠٨ هـ.ق: ٤٣).

إننا وجدنا عبارات من بعض هؤلاء المستشرقين الذين مر ذكرهم، تثبت هذه الحقائق التي ذكرناها، إثباتاً قاطعاً؛ فانظر إلى «كارل بروكلمان» حيث يتحدث عن أدب الإمام (عليه السلام) كيف يعبر عن أدبه؛ «أدب علوي منحول» (بروكلمان، ١٩٥٩، ج ١: ٢٤٥؛ أيضاً أنظر: ج ٢: ٣٨١)

أو اقرأ ما يشير إليه الأستاذ «زكي مبارك» في المستشرق الفرنسي، المسيو ديمومبين، الذي أشرف أطروحته الجامعية (النشر الفني في القرن الرابع) بمرحلة الدكتوراه في جامعة باريس:

«وقد أراد المسيو ديمومبين (Demombynes) أن يعض من قيمة نهج البلاغة لعلّي ابن أبي طالب من خطب و رسائل، استناداً إلى ما شاع منذ أزمان من أن الشريف الرضي هو الواضع لكتاب (نهج البلاغة) أما نحن فنتحفظ في هذه المسألة كل التحفظ؛ لأن الجاحظ يحدثنا أن خطب علي و عمر وعثمان كانت محفوظة في مجموعات [البيان والتبيين، ج ١: ١٤٧ و أيضاً؛ الجاحظ؛ ١٩٩٨م- ١٤٠٨ هـ.ق، ج ١: ١٧٦]. و معنى هذا أن خطب علي كانت معروفة قبل الشريف الرضي. والذين نسبوا نهج البلاغة إلى الرضي يحتجون بأنه وضعه لأغراض شيعية، فلم لا نقول من جانبنا بأن قيمة الوضع جاءت لتأييد خصوم الحملات الشيعية» (مبارك، ١٣٥٢هـ- ١٩٣٤م، ج ١: ٦٩).

و بعد؛ فلم ندخل هذا الموضوع إلا تمحيصاً و تحقيقاً فيما ذهب بعض من النقاد الذين يعتقدون أن نهج البلاغة من صنع الشريف الرضي أو أخيه المرتضى و هم يعتمدون في تلك العقيدة المنحرفة الشاذة على براهين متعددة.

ومن جملة هؤلاء الذين جعل التشكيك الديكاري أساساً في دراساته هو الأديب المصري المعاصر، الدكتور شوقي ضيف، صاحب التأليفات الكثيرة في مجال الأدب و التاريخ. لقد ذهب في كتابيه؛ «تاريخ الأدب العربي؛ العصر الإسلامي»، و«الفن و مذهب في النثر العربي» إلى أن نهج البلاغة من عمل الشريف الرضي و صنفه لا من وضع علي (عليه السلام).

و من الجدير بالذكر أن الدكتور ضيف، و ليس في هذا المجال وحده، بل في أكثر آثاره الأدبية يطعن في ما ينتمي إلى الشيعة و الأدب الشيعي. و هو في كثير من الأحيان يميل عن الإنصاف و الحيادة.

و لم يكن ضيف وحده هو الذي تأثر بالمنهج الديكاري أو دخل في سجن من العصبية، بل هناك عدد كبير ممن نهجوا منهجه و حذوا حذوه و تردّدوا في صحة نهج البلاغة. مثل؛ أحمد أمين (١٩٦٩: ١٤٨-١٤٩)، و جرجي زيدان (١٩١١-١٩١٤م، ج٢: ٣٣٣)، و خير الدين الزركلي (الأعلام، ج٤: ٢٧٨)، و عباس محمود العقاد (بدون تاريخ: ٩٨-١٠١)، و احمد حسن الزيات (٢٠٠٥م- ١٤٢٦هـ: ٢٠٨-٢٠٩) و حنا الفاحوري (١٣٨٠هـ.ش: ٣٢٢)...

يبدو أن أول من طرق هذا الموضوع من القدماء هو «ابن خلّكان» (٦٨١هـ.ق) صاحب وفيات الأعيان (ج٣: ٣١٣) الذي مهّد بهذا الأمر، الأرضية المناسبة للذين حرّفوا الحقيقة من مواضعها و شككوا في صحة نهج البلاغة. مثل؛ الياضي (٧٨٦هـ) صاحب (مرآة الجنان،

ج٣: ٥٥)، و ابن العماد (١٠٨٩هـ) صاحب (شذرات الذهب، ج٣: ٢٥٧)، و الذّهبي (٧٤٨هـ) صاحب (ميزان الاعتدال، ج٣: ١٢٤)، و ابن حجر العسقلاني (٨٢٥هـ) مؤلف (لسان الميزان، ج٤: ٢٥٦)، و

أما خلاصة القول في البراهين التي يعتمدون عليها فهي؛
١. جاء في نهج البلاغة من التعريض بالصّحابة ما لا يمكن صدوره عن مثل الإمام علي (عليه السلام).

٢. في الكتاب من الأفكار العميقة، المعقّدة، و استعمال المصطلحات الفلسفية كالأين و كيف ونحوهما، و استعمال الطريقة العددية في شرح المسائل و في تقسيمات الفضائل أو الرذائل، و الدّقة في الوصف، و استفراغ صفات الموصوف- كما في الكلام على الطّاووس و التّملة و غيرهما- ممّا لم يوجد في عصر علي (عليه السلام)، و لم يعرف عند العرب إلا بعد ترجمة كتب اليونان و الفرس الفلسفية والعلمية.

٣. في الكتاب من السّجع و التّمنيق اللفظي و آثار الصّنع، ما لم يعهده عصر علي (عليه السلام)، و إنّما طرأ على أساليب الكتابة في أواخر العهد الأمويّ و في العهد العبّاسي.

٤. في عبارات الكتاب ما يُلمس منه ادّعاء صاحبه علم الغيب، و هذا أمر بعيد من رزانة علي (عليه السلام) و عن أخلاقه الرفيعة (الفاحوري، ١٣٨٠هـ.ش: ٣٢٢-٣٢٣).

فأنكر كثير من المتأخّرين و الحدّثين براهين أصحاب هذا الرأي و ألفوا كتباً ذات قيمة في الردّ على هؤلاء و في تبين أسناد كلام علي (عليه السلام) قبل الشّريف الرّضيّ مثل؛ امتياز علي خان عرشي صاحب (أسناد نهج البلاغة)، و هبة الدين الشهرستاني (ما هو نهج البلاغة)، و الشيخ هادي آل كاشف الغطاء (مدارك نهج البلاغة)، و

التَّهْج و أيضاً عن منهج الأستاذ ناصرالدين الأسد حيث يدرس قضية الإنتحال في «مصادر الشعر الجاهلي و قيمتها التاريخية».

علماً بأن المسائل التاريخية والأدبية، كما يقول أصحاب النقد، لا تعرف الكلمة الأخيرة في موضوع من موضوعاتها.

الثالثة: لقد تبين لنا هذا البحث، عن بعض أخطاء الدكتور ضيف و منهجه حول حقيقة نهج البلاغة؛ لأنه جاء يبحث عن التَّهْج دون أن يستدل أو يراعي منهجاً علمياً أو يمنح مسألة ما تستحق من الأهمية أكثر من هذا.

١. عرض الموضوع

كما قلت آنفاً إن بعض القدماء تردّدوا في صحة انتساب نهج البلاغة إلى الإمام عليّ (عليه السلام) و يحمل الدوافع عندهم، كان محصوراً في العصبية، والخصومة والأوهام والميول النفسانية دون حجج بالغة. حتى استقرّ الموضوع بين يدي الأديب المصري المعاصر، الدكتور شوقي ضيف، الذي حشد مادّة بحثه الأساسية من آراء هؤلاء القدماء و تحدّث عنه في إيجاز و انتظام في كتابه؛ تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي (١٩٦٣م: ١٢٨)، والفن ومذاهبه في النثر العربي (١٩٤٦م: ٦١-٦٣).

أول ما يبدو في منهجية الدكتور شوقي، هو أنه جمع ما تفرّق في المصادر القديمة بحيث كأنه يحكي و يسرد ما أورده أولئك المؤلفون دون أن يحلّل آرائهم أو يميّز زائفها من صحيحها أو غثها من سمينها. إنّه لا يقف عند أخبار هؤلاء الرواد إلاّ أن يدعها و ينقلها إلى غيرها في موقف ديكارتيّ متشكك يبالغ في الرأي والإستنتاج.

و لقد قسّمنا حديث الدكتور ضيف في هذا المجال إلى قسمين؛ أولهما: الدوافع التي دفعته إلى الشك في صحة نهج

عزيرالله العطاردي (جامعو كلام عليّ (عليه السلام)، و محمد مهدي الجعفريّ (دراسة في أسناد نهج البلاغة)، و محمدحسين آل ياسين (لمن نهج البلاغة)، و عبدالزهرّاء الحسينيّ (مصادر نهج البلاغة و مداركه)، رضا الأستاذي (بحث حول مصادر نهج البلاغة)، و ابن أبي الحديد (شرح نهج البلاغة)، و العلامة ميرزا حبيب الله الخوئي (شرح نهج البلاغة)، و آية الله حسن زاده (تكملة المنهاج في تكميل شرح الخوئي) و محمد باقر المحمودي (نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة) وعبدالله نعمة (مصادر نهج البلاغة)، وعزيرالله العطاردي (شرح نهج البلاغة) و أخيراً محمد دشتي (مناهج البحث في أسناد نهج البلاغة). و هذا غيض من فيض ما صُفّ في هذا المجال.

و بعد هذا، و قبل أن نخوض في صميم البحث لابدّ لنا أن نلفت النظر إلى نكات هامة حول سابقة البحث و أهميته ثمّ المستجدات التي تجدر الإشارة في هذا المقال: الأولي: أنني لم أقف على مقالة أو تأليف أو بحث أو كلمة علمية إلاّ ما سمعتها عن الأساتذة في الجامعات و هي تنبّه على شبهات الدكتور ضيف فقط، لا في هذا المجال خاصة، بل في جميع ما يمتّ إلى الأدب الشيعيّ عامّة، رغم أن كتبه المختلفة تنتشر و تدرس في الجامعات العربية والإيرانية كمصدر تعليمي أكثر من أربعين عاماً.

و من هذا المنطلق، «طَفَقْتُ أَرْتَأِي بَيْنَ أَنْ» أتخذ موقف الحياد أو «أَصْبَرَ عَلَى طَخِيَةِ عَمِيَاء» فرأيتُ أن البحث عن «هَاتَا أَحْجَي» و أحسن. فأخذتُ أكتب و في العين والقلب بل في كلّ كيانشي، عزم وحبّ وودّ ودقّة و رجاء.

الثانية: أن المنهج الذي اخترته في دراسة هذا الموضوع، يعدّ منهجاً علمياً يمتاز بالتنظيم والتنسيق والدقّة والحدّاءة كما لم أكن غافلاً عن مناهج علماء الشيعة في دفاع عن

١. الأدلة الخارجة عن نهج البلاغة

١-١. الإستناد إلى المصادر التاريخية: إن «ضعف» يستند إلى بعض المصادر التاريخية مثل: وفیات الأعیان، و مرآة الجنان، و شذرات الذهب، و میزان الاعتدال، و لسان میزان، و الرجال. حيث یخلص إلى القول أخيراً بأن يد الإنتحال قد امتدت إلى نهج البلاغة و أسقطته من الإعتبار:

«أما علي بن أبي طالب فإنه لم يكن يقل عن أبي بكر و عمر شأواً في خطبته، و قد أثرت عنه خطب كثيرة، و لا نقصد الخطب التي یحتویها بین دفتیه کتاب «نهج البلاغة» فأكثره مصنوع و محمول علیه. و قد أشار إلى ذلك كثير من العلماء، و اختلفوا هل هو من عمل الشريف المرتضى سنة ٤٠٦ للهجرة، یقول ابن خلکان في ترجمة أولهما بکتاب وفیات الأعیان: «قد اختلف الناس في کتاب نهج البلاغة المجموع من کلام الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، هل هو جمعه أم جمع أخيه رضي، و قد قيل إنه ليس من کلام علي، و إنما الذي جمعه و نسبه إليه هو الذي وضعه». و یردّد هذا الکلام الیافعي في مرآة الجنان [مرآة الجنان (طبعة حیدرآباد) ٥٥/٣] و ابن العماد في شذرات الذهب [شذرات الذهب (طبعة القاهرة) ٢٥٧/٣]، و یؤكد الذهبي في میزان الاعتدال أن الشريف المرتضى هو الذي وضعه [میزان الاعتدال (طبعة لکنهو) ٢٠١/٢]، و یذهب مذهبه ابن حجرالعسقلانی في لسان میزان، یقول: «من طالع نهج البلاغة، جزم بأنّه مکذوب علی أميرالمؤمنین علي، رضي الله عنه، وفيه من التناقض و الأشياء الرکیکه و العبارات التي من له معرفة بنفس القرشيين الصّحابة و بنفس غیرهم ممن بعدهم من

البلاغة، و ثانيهما: الأسباب التي یعتقد أنّها أدّت إلى التحل في نهج البلاغة. ثمّ رتبنا أيضاً آراءه و آراءنا في ردّه ترتيباً مفصّلاً بحيث یقابل کلّ رأي من آرائه ردّاً مفصّلاً منها.

و التکته الهامة التي لا بدّ لنا هنا من تسجيلها هي أنّ الدكتور ضيف في کلامه عن نهج البلاغة، قد أغفل دور الباحثين الذين درسوا أسناد کلام علي (عليه السلام) قبل الشّريف الرضيّ و بعده، بل اعتمد اعتماداً شديداً علی آراء المرتابين الذين تردّدوا في صحة انتساب نهج البلاغة إلى الإمام (عليه السلام). فهذه المسألة هي ما یخالف الأخلاق العلمية والإسلامية؛ ألم يقل الله عزّ وجلّ في التّزويل الشريف و هو یؤبّخ هؤلاء المنافقين من أهل الکتاب الذين كانوا یسمعون الکذب و یحرّفون الکلمات من مواضعها: «... وَمَنْ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ...» (المائدة/٤١)

و سنتحدّث عن الحقيقة التي کتمها ضيف في هذا المقال دون أن ننکر شخصيته العلمية و مکانته السّامية و مقدّراته الواضحة في حقل الأدب و التاريخ.

و كما أشرت آنفاً أنّ الدكتور ضيف یحاول فی آرائه أن یعزو و ینسب نهج البلاغة إلى الشّريف الرضيّ، بل یحاول أن یکتّم و یستر مناقب الإمام (ع) و فضائله.

و من المؤسف رغم شروح كثيرة یزید عددها (بالعربية و الفارسية) علی أربعین شرحاً (من قبل علماء الشيعة و السنّة) أنّه یؤكد علی التّحريف و الإنتحال في هذا الأثر القيم. و لتمييز آرائه عن الآخرين رتبنا أدلّته علی نوعين؛ ١. الأدلة التي تعتمد علی محتوی نهج البلاغة، ٢. الأدلة التي تعتمد علی أمورخارجة عنه، كما أجبنا علی آرائه و شبهاته في ترتيب مفصّل واضح.

المتأخرين جزم بأن الكتاب أكثره باطل» [لسان الميزان (طبعة حيدرآباد) ٢٢٣/٤]. و يذهب النجاشي المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة في كتابه «الرجال» إلى أن مؤلف الكتاب هو الشريف الرضي [الرجال (طبعة بومياي) ص ١٩٢، ٢٨٣]، و هذا هو الصحيح بشهادة الرضي نفسه و شهادة شراح كتابه، فقد ذكر في الجزء الخامس المطبوع من تفسيره أنه هو الذي سماه باسمه نهج البلاغة [الجزء الخامس من حقائق التزئيل للشريف الرضي (طبعة النجف) ص ١٦٧] كما ذكر ذلك في كتابه «مجازات الآثار النبوية» [طبع بغداد، ص ٢٢، ٤١]، و نجد ابن أبي الحديد المتوفى سنة ٦٥٥ في شرحه للكتاب يعترف بأن خطبه من عمل الشريف الرضي [لم أعر في ذلك الشرح على مثل هذه العبارة]، و يذهب ابن ميثم البحراني في شرح عليه إلى أنه من تأليف الشريف [لم أقف على شيء يدل على ذلك] (شوقي ضيف، ١٩٦٠م: ٦١-٦٢/نفسه، ١٤٢٧هـ-ق: ١٢٨).

ثم يستنتج ضيف قائلاً:

«و إذن فالكتاب من عمل الشريف الرضي و صنعه، و يظهر أنه لم يؤلفه جميعاً، ... (شوقي ضيف، ١٩٦٠م: ٦٢).

١-١. الرد على شوقي ضيف

إن ما يؤخذ على ضيف في ذكر هذه الأقوال هو أنه لم يكن متفحّصاً و مدققاً في نقل آراء هؤلاء العلماء الذين استند إليهم، بحيث كأنه يحكي ماسرده الآخرين دون تمحيص و بحث. فلهذا يكون من المفيد لنقف لحظات معاً في صميم تلك المصادر و أصحابها في دقة و وضوح وصفاء:

الألف. نقد قول ابن خلكان: الأول: لقد أقبل صاحب وفيات الأعيان- و مثله اليافعي، و ابن العماد، والذهبي- على قول لا يعتمد عليه في البحوث العلمية حيث يقول: قد اختلف الناس في كتاب نهج البلاغة... فهناك سؤال أساسي: إلى أيّ ناسٍ يشير ابن خلكان؟ هل الناس يستطيعون أن يميزوا بين الكلام الصحيح والمزيف في دقة واستقصاء؟ أم هذه المسألة تحتاج إلى مزيدٍ من الجهد والمراس في البحث والدراسة؟

الثاني: إنه يقول: «و قد قيل...»؛ لا أدري كيف لا يعتمد ابن خلكان على ما قيل في صحة انتساب نهج البلاغة إلى الإمام (ع) و توثيقه بل يعتمد على ما قيل في انتساب هذا الكتاب إلى الشريف الرضي. ولسنا في حاجة إلى أن نسأل الدكتور ضيف؛ كيف اعتمد و عول على مثل هذه العبارات التي تفتقد روح البحث و العلم والحقيقة؟

فيظهر من كلام ابن خلكان أنه لم يقطع بأن نهج البلاغة ليس من كلام عليّ، و إنما نسبه إلى «قيل»، و معلوم أن هذا ليس بمعتقد، و في آخر كلامه خلّص نفسه و قال والله أعلم، يعني هذا الكتاب مورد اختلاف والله يعلم حقيقة الأمر (أنظر: العطاردي، ١٣٧٥هـ-ش: ١٤-١٥)

الثالث: ما هي الدلائل أو البراهين أو المصادر التي يعتمد عليها صاحب الوفيات في ردّ انتساب نهج البلاغة إلى عليّ (عليه السلام) أو في انتسابه إلى الشريف الرضي؟ هل نشعر من رأيه أنه قصد حجة أو برهاناً؟

الرابع: يعجبني كلّ الإعجاب أن الدكتور ضيف تغافل عن حقيقة اعترف بها صاحب وفيات الأعيان و هي أنه كان ميّالاً إلى الأمويين عامة و «يزيد» خاصة بحيث كان يحفظ و يروي قصائد ليزيد. و ها هو يعترف قائلاً في

السادس: و كيف يُعقل أن يؤلف الشريف أو غيره كتاباً ويسنده إلى الآخرين؟

السابع: كيف يسند ابن خلّكان، النهج إلى الشريف المرتضى، و هذا هو السيّد الرّضي يقول في موارد كثيرة من نهج البلاغة في ترجمة بعض الكلمات: قال الرّضي كذا... (أنظر: العطاردي، ١٣٧٥ هـ.ش: ١٤).

و أمّا قول ابن أبي الحديد فإنّه يقول في شرحه على الخطبة الشّشقية:

حدّثني شيخى، أبو الخير مصدّق بن شبيب الواسطي، في سنة ثلاث و ستمائة، قال: قرأت على الشيخ، أبي محمد عبدالله بن أحمد، المعروف بابن الحشّاب، و كان صاحب دعاية و هزل، قال: فقلت له: أتقول أنّها منحولة؟ فقال: لا والله لأعلم أنّها كلامه كما أعلم أنّك مصدّق.

قال: فقلت له: إنّ كثيراً من الناس يقولون: إنّها من كلام الرّضي - رحمه الله تعالى -، فقال: أتى للرّضي ولغير الرّضيّ هذا النّفس و هذا الأسلوب، قد وقفنا على رسائل الرّضيّ و عرفنا طريقته و فنه في الكلام المنثور، و ما يقع مع هذا الكلام في خلّ ولا خمر. ثمّ قال: والله وقفت على هذه الخطبة في كتب صنّفت قبل أن يخلق الرّضي بمائتي سنة، و لقد وجدتها مسطورة بخطوط أعرفها، و أعرف خطوط من هو من العلماء و أهل الأدب قبل أن يخلق التّقيّ أبو أحمد والد الرّضيّ.

قلت: وقد وجدت أنا كثيراً من هذه الخطبة في تصانيف شيخنا أبي القاسم البلخي، إمام البغداديين من المعتزلة، و كان في دولة المقتدر قبل أن يخلق الرّضي بمدة طويلة. و وجدت أيضاً كثيراً منها في كتاب أبي جعفر بن قبة أحد متكلمي الإمامية و هو

حديثه حول المرزباني: «و هو [أبو عبيدالله محمد بن عمران بن موسى بن سعيد بن عبيدالله المرزباني] أوّل من جمع ديوان يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي واعتنى به، ... و كنتُ حفظتُ جميع ديوان يزيد لشدة غرامي به، و ذلك في سنة ثلاث و ثلاثين بمدينة دمشق و عرفتُ صحيحه من المنسوب إليه الذي ليس له، و تتبّعته حتى ظفرت بصاحب كلّ أبيات له. و لولا خوف التّطويل لبّنتُ ذلك. و شعر يزيد مع قلته، في نهاية الحسن...» (ابن خلّكان، ١٣٦٤ هـ.ش، ج ٤: ٣٥٤). (و كذلك: فوات الوفيات، ج ١: ١١٠-١١٨/ النجوم الزاهرة، ج ٧: ٣٥٣-٣٥٥/ روضات الجنات، ج ١: ٣٣٠-٣٣٦/ الكنى والألقاب، ج ١: ٢٧٣-٢٧٥)

و ما أحسن قول الأستاذ زكي مبارك في هذا المجال حيث يقول: «إنّ تلك الشّكوك [حول نهج البلاغة] قامت جميعاً على أساس التّرعات المذهبية...» (مبارك، ١٤٢٧ هـ-٢٠٠٧ م، ج ١: ٢٠٧). و لا يخفى على الباحث المتتبّع أنّ بني أمية كانوا يكرهون التشيع و من ينتمي إليه كرهاً شديداً.

الخامس: أنّ الشريف الرّضيّ - و أخاه المرتضى أيضاً - لقد عُرف في التاريخ بالأمانة والصدّاقة والعدالة والدّقة والعفة والأخلاق، فكيف يسند كلام الإمام عليه السّلام إلى نفسه أو يميل عكس ذلك أو يكذب على الإمام و يحرف كلامه من بعض مواضعه. فاتهمه الكذب على أمير المؤمنين في سبيل التّرفة المذهبية هو اتّهام مردود لا يقبله إلّا من يجهل أخلاق الشريف (أنظر: مبارك، ٢٠٠٧ م. ١٤٢٧ هـ، ج ١: ٢٠٧-٢١٣/ يبضون، ١٤٠٨ هـ: ٤٢/ العطاردي، ١٣٧٥ هـ.ش: ٢٣-٤٨/ شيخى، ١٣٧٩ هـ.ش: ١٩-٢٤).

عملاً» (شوقي ضيف، ١٩٦٠م: ٦٢٠)؛ نقله عن مروج الذهب (طبعة باريس، ٤/٤٣١) و كذلك أنظر: المسعودي، بدون تاريخ، ج ٢: ٤١٩).

الردّ على ضيف:

الأول: أنّ الدكتور ضيف قد أشرف على رسالة الدكتور، ناصرالدين الأسد، في مرحلة الدكتور، و أنّه تحدّث في تلك الرّسالة عن أهميّة الرواية عند العرب و طبقات الرّواة و ما لهم فهناك السّؤال: فكيف لا نستطيع أن نعتمد على الرواة الذين نقلوا كلام عليّ عليه السّلام عن صدق و إخلاص مع أنّ العرب يعتمد على الرواة الذين نقلوا تراثهم الشّعريّ في كثير من المجالات؟!

الثاني: إنّ كلام المسعودي في حفظ الناس خطباً كثيرة عن عليّ، كلمة حق أراد ضيف به كلاماً باطلاً؛ لأنّ الدكتور ضيف، تأوّل كلام المسعودي إلى ما أحبه رغم أنّ ألفاظه صريحة واضحة لا تدلّ على شيء إلاّ على أهميّة خطب عليّ عليه السّلام بين المسلمين و هذا ليس بعجيب؛ لأنّه كان أمير البيان فضلاً عما كان إمامهم و سيف الله و وصيّ رسوله (ص) (أنظر: مطهري، ١٣٦٨ هـ.ش: ٤).

الثالث: كيف يستطيع ضيف أن ينكر الرواة الذين أخذوا على عاتقهم أهميّة تدوين كلام عليّ عليه السّلام، قبل أن يقوم به الشّريف الرضي؟! هؤلاء الرواة الذين يبلغ عددهم أكثر من مائة و قد عُرفوا بالصدق و الأمانة؟! إذا كانوا كذلك فكيف لا يعتقد ضيف إلى إنكار الرواية في الشعر الجاهلي؟!

الرابع: أنّ المسعوديّ يشير إلى أربعمئة و نيف و ثمانين خطبة عن الإمام عليّ عليه السّلام، رغم أنّ ما جمعها الشّريف الرضي فيما بين أيدينا من نهج البلاغة لا يتجاوز عن ٢٣٩ خطبة. فهذه المسألة تدلّ على كثرة الخطب للإمام عليه

الكتاب المشهور المعروف بكتاب «الإنصاف». و كان أبو جعفر هذا من تلامذة الشيخ أبي القاسم البلخيّ رحمه الله تعالى، و مات في ذلك العصر قبل أن يكون الرضيّ رحمه الله تعالى موجوداً. ابن أبي الحديد، ١٩٦٥م-١٣٨٥هـ، ج ١: ٢٠٦-٢٠٥ / و أنظر: العطاردي، ١٣٧٥ هـ.ش: ١٦).

إذن يبدو أنّ الدكتور ضيف قد استنتج من هذا القول، مسألة الإنتحال في النهج رغم أنّ هذه النتيجة تخالف حقيقة القول لابن أبي الحديد. و بما أنّ الآخرين من المرتابين- من القدماء- قد ذهبوا مذهب ابن خلّكان فاعتقنا هاهنا بالردّ على شبهات ابن خلّكان و الدكتور ضيف.

١-٢. الرواة الوضّاعين

العامل الآخر الذي يعوّل عليه الدكتور ضيف في دعواه حول الإنتحال في نهج البلاغة هو عامل الرواة الوضّاعين. فإني لا أريد أن أدرس مسألة الرواة و الرواية في الأدب و الحديث، لأنّ الأستاذ الدكتور «ناصرالدين الأسد» قد فصلّ الكلام في هذا المجال و وضع التّقاط على الحروف (أنظر: الأسد، ١٩٦٩م: ٢٢٢-٢٥٤).

أمّا الأستاذ ضيف فيشير إلى دور هذه المسألة في انتحال نهج البلاغة مستنداً إلى قول صاحب «مروج الذهب»:

فقد أضاف قبله كثير من أرباب الهوى و فصحاء الشيعة خطباً و أقوالاً إلى علي بن أبي طالب [عليه السّلام]، يدلّ على ذلك ما جاء في مروج الذهب للمسعودي إذ يقول: «الذي حفظ النّاس عن عليّ من خطبه في سائر مقاماته أربعمئة خطبة و نيف و ثمانون خطبة يوردها على البديهة، تداول النّاس ذلك عنه قولاً و

السَّلام و تداولها بين النَّاس و قد رُوى مثل هذه العبارة في «مشاكلة الناس لزمانهم» (أنظر: ابن واضح اليعقوبي، بدون تاريخ: ١٥).

الخامس: هل يُعقل أن يحفظ النَّاس أشعار العابثين و الماجنين من أهل العصر الأمويّ و ينسوا خطب عليّ و يضيعوها ضياعاً مطلقاً و كان في زمانه و بشهادة خصومه من أفصح الخطباء؟!

و من الذي يتصوّر أنّ الذّاكرة العربية تحفظ أشعار النصراري و اليهود و تنسى خطب الرّجل الذي ضُرّجَ بدمه في يوم من أيام الفتن العمياء؟

و إذا جاز أن يحفظ النَّاس ما دسّه المغرضون على أمير المؤمنين فكيف يجوز أن ينسوا ما تُسب إليه على وجه صحيح؟

و أين العقل الذي يقبل القول بأنّ عليّاً لم يحيي بيانه إلّا في الآثار المفتريات؟ أين و نحن نجزم بأنّ في الشيعة أنفسهم رجلاً من العرب الصّرحاء الذين يؤذيه الكذب و الإنتحال؟

لا مفرّ من الإعراف بأنّ «نهج البلاغة» له أصل، و إلّا فهو شاهد على أنّ الشيعة كانوا أقدر الناس على صياغة الكلام البليغ (مبارك، ٢٠٠٧م - ١٤٢٧هـ: ٢١٠-٢١١).

و هذا هو ابن أبي الحديد يردّ على مسألة الرواة الرّضّاعين في نهج البلاغة قائلاً:

«كثير من أرباب الهوى يقولون: إنّ كثيراً من نهج البلاغة كلام محدث صنعه قوم من فصحاء الشيعة، و ربّما عَزَوْا بعضه إلى الرّضي أبي الحسن أو غيره؛ و هؤلاء أعمتِ العصبيّة أعينهم، فضلّوا عن نهج الواضح، و ركبوا بُنَيَاتِ الطّريق [هي الطّرق الصّغار تتشعب من الجادة؛ و هي الترهات] ضلالاً بعيداً وقلّة معرفة بأساليب الكلام» (ابن

أبي الحديد، ١٩٦١م، ج ١٠: ١٢٧-١٢٨ و أيضاً أنظر: رأي المؤلّف في كتاب نهج البلاغة: ١٢٨-١٢٩).

٢-٢. الدلائل الدّاخلية

١-٢. الدليل الأدبي:

ينكر الدّكتور ضيف أن يكون نهج البلاغة للإمام عليه السّلام و ذهب إلى أنّه من وضع الشريف الرضي و حجّته الأخرى في هذه العقيدة هي أنّ في الكتاب سجّع، بينما ينهي الرّسول (ص) أصحابه عن السّجّع في الكلام:

و كأنّ الشريف الرضي، وجد مادّة صاغ منها كتابه، و هي مادّة تُنبت على السّجّع، و في ذلك نفسه ما يدلّ على كذب نسبتها إلى عليّ؛ إذ ليس من الطّبيعي أن يسجّع عليّ في خطابته، بينما ينهي الرّسول الكريم عن السّجّع، و يتحاماها أبو بكر و عمر و عثمان في خطاباتهم (شوقي ضيف، ١٩٤٦م: ٦٢).

الرّد عليه

الأوّل: حتّى لو افترضنا صحة كلامه فإنّ إصرتلك الأشياء لا يقع على عاتق الشريف، و إنّما يقع على عواتق من سبقوه من الذين طاب لهم أن يُنطقوا أمير المؤمنين بأقوال رأوها تؤيّد مذهبهم بعض التأييد (مبارك، ٢٠٠٧م - ١٤٢٧هـ، ج ١: ٢١١).

الثاني: صحيح أنّ الرّسول (ص) لم يكن يستخدم السجّع في خطاباته - كما أشار إليه الدّكتور ضيف - لكنّه لا ينكر وجود السّجّع الذي بُرئت ألفاظه من الإغراب و التعقيد و الإستكراه، بل ينفر ممّا اصطليح بسجّع الكهان في الجاهلية (أنظر: شوقي ضيف، ١٩٤٦م: ٥٧-٥٨). و من

٢-٢. الدلائل الأخلاقية

لقد ذهب الدكتور ضيف أن في نهج البلاغة تعريضاً بالصَّحابة و يعتقد أن هذا بعيد عن أخلاق الإمام عليه السَّلام. إنه يقول مشيراً إلى مذهب «ابن حجر العسقلاني» في «لسان الميزان» و لعلهما يشيران بهذا القول إلى الخطبة الشَّقَشَقِيَّة:

و يذهب مذهبه [مذهب الذَّهبي في ميزان الاعتدال الذي يقول أن الشريف المرتضي هو الذي وضع نهج البلاغة] ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان، يقول: «من طالع نهج البلاغة جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، ففيه السبُّ الصَّراح والخطُّ على السيِّدين: أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، و فيه من التَّنَاقُض و الأشياء الرُّكيكة و العبارات الَّتِي مَن له معرفة بنفس القرشيين الصَّحابة و بنفس غيره مَن بعدهم من المتأخِّرين جزم بأنَّ الكتاب أكثره باطل» (شوقي ضيف، ١٩٤٦م: ٦٢. نقله عن؛ لسان الميزان (طبعة حيدرآباد) ٢٢٣/٤).

الرد عليه

الأوَّل: أن هذه الخطبة (الخطبة الشَّقَشَقِيَّة) لقد رويت أيضاً في مصادر نهج البلاغة قبل الشريف الرضي، بحيث يذكر صاحب «ما هو نهج البلاغة» عدد تلك الكتب تسعة مصادر (أنظر: الشهرستاني، ١٣٦٤هـ. ش: ٧٦ و ٦٠-٩٣؛ ١. أبوالقاسم البلخي (القرن الثالث)؛ نقلاً عن ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، ج ١: ٦٩، ٢. أبو جعفر ابن قبه الرازي (القرن الثالث) في كتابه، الأنصاف؛ نقلاً عن ابن ميثم البحراني و ابن أبي الحديد في شرحيهما على نهج البلاغة ٣. في مخطوطة على خط الوزير أبي الحسن على بن

الحقَّق أن خطب الإمام عليه السَّلام بريئة من هذا الضَّعف و النَّقص بما أتاح له مدرسة الإسلام من البلاغة و البيان.

الثالث: أن الإمام عليه السَّلام ترعرع في بيت الوحي والنَّبوة و جعله الله سبحانه و تعالى غصناً من شجرة النبوَّة. والتَّيَّ (ص) كان أفصح من نطق بالضاد، إذاً ليس بعجيب أن يتأثَّر بالقرآن و كلام الرسول (ص) و يكون كلامه دون كلام الخالق و فوق كلام المخلوق.

الرابع: أن الدكتور ضيف قد أشار في ذلك المكان إلى كلام من الجاحظ يناقض و ينافي رأيه. الجاحظ يقول: «كانت الخطباء تتكلَّم عند الخلفاء الرّاشدين، فتكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة» (شوقي ضيف، ١٩٤٦م: ٥٨. نقله عن؛ رسائل الجاحظ (طبعة الساسي) ص ١٥٥).

إذاً نستشف من قول الجاحظ أن التَّيَّ (ص) و أصحابه السَّابِقين قد خالفوا السَّجَّع الَّذِي تشمُّ منه رائحة التَّنَبُّ و التكهَّن لا الشريعة و العقيدة (أنظر: مبارك، ١٩٣٤م- ١٣٥٢هـ، ج ١: ٦٤ / العطاردي، ١٣٧٥هـ. ش: ١٨)

الخامس: إنَّ طريقة نهج البلاغة و أسلوبه تختلف عن أسلوب الشريف الرضي في جميع آثاره (مجازات الآثار النبوية، و حقائق التأويل في متشابه التَّزِيل، و تلخيص البيان عن مجازات القرآن، والخصائص، وأخبار قضاة بغداد و...) و ما الَّذِي نراه حين نقرأ مؤلَّفات الشريف؟ يجيب الدكتور زكي مبارك على هذا السؤال قائلاً:

«نجد رجلاً يُحيل على مباحثه الماضية بأسلوب يُشعرنا بأنَّه قضى دهره و هو مشغول بالتأليف، نجد رجلاً يحدِّثنا أنَّ مؤلَّفاتِه بلغت العشرات في موضوعات مختلفات، و تشهد قوَّة تعبيره، و غزارة علمه بأنَّ (المؤلَّف) هو الشخصية الأصلية الَّتِي صدر ذلك الباحث الجليل» (مبارك، ٢٠٠٧م- ١٤٢٧هـ، ج ١: ١٩٧).

نفسه مسؤولاً أمام المجتمع و مصيره و إذ لم يكن كذلك
لألقى حبل الخلافة على غارها؛

«لَوْلَا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَ قِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ
وَ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ إِلَّا يُقَارُّوا عَلَى كُطَّةٍ
ظَالِمٍ وَ لَا سَعْبَ مَظْلُومٍ لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِهَا
وَ لَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا وَ لَا لَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ
هَذِهِ أَرْهَدَ مِنْ عَفْطَةِ عَتَرٍ.» (الإمام علي عليه
السَّلام، ١٣٧٩هـ.ش: ٤٨/٣)

الثالث: لم يوبَّخ الإمام عليه السَّلام بعض المسلمين في
هذه الخطبة فقط، بل هناك خطب أخرى يلوم الإمام عليه
السَّلام بعض أصحابه أو غيرهم من المسلمين لأسباب
عديدة. على سبيل المثال أنه يخاطب عمرو بن العاص «بابن
النايعة» و النايعة أمه كانت امرأة قد اشتهرت بالفسق
و الفجور (أنظر: الإمام علي عليه السَّلام، ١٣٧٩هـ.ش: ١٤٠/٨) أو يقول في سياسة معاوية
المأكرة:

«وَاللَّهِ مَا مَعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي، وَ لَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَ يَفْجُرُ»
(أنظر: نفس المصدر: ٤٢٢/٢٠٠)

كما يشكو من أصحابه في خطبة الجهاد التي يذكرها
الدكتور ضيف نقلاً عن صاحب البيان و التبيين (٥٢/٢)
و هو يسندها إلى الإمام عليه السَّلام (أنظر: شوقي
ضيف، ١٤٢٧هـ: ١٢٧):

«... يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَ لَا رِجَالَ! حُلُومُ الْأَطْفَالِ،
وَعُقُولُ رِبَاتِ الْحِجَالِ...» (الإمام علي عليه السَّلام، ١٣٧٩هـ.ش: ٧٦/٢٧).

أو يقول في استنفار النَّاسِ إلى أهل الشام بعد فراغه من
أمر الخوارج موبِّخاً أهل الكوفة:

«أُفُّ لَكُمْ! لَقَدْ سَمِئْتُ عِتَابَكُمْ!...» (نفس المصدر:
خ ٨٦/٣٤)

فرات (سنة ٣١٢هـ) نقلاً عن ابن ميثم البحراني في شرح
البلاغة ٤. أحمد بن برقي (٢٧٤هـ) مؤلف كتاب المحاسن،
نقلاً عن رواية الشيخ الصدوق في كتابه «علل الشرايع»
الباب؛ ١٢٢ طبع سنة ١٢٨٩هـ ٥. العالم المؤرخ
عبد العزيز يحيى الجلودي البصري (القرن الثالث) نقلاً عن
الشيخ الصدوق في باب ٤٠٤ من كتابه «معاني الأخبار»
طبع سنة ١٢٨٩هـ ٦. العالم المحدث، حسن بن عبدالله بن
سعيد العسكري (القرن الثالث) في كتابه «المواعظ و الزواجر»
نقلاً عن «القطيفي» في كتابه «الفرقة الناجية» و الشيخ
الصدوق في «معاني الأخبار»، الباب؛ ٤٠٤ ٧. العالم الكبير،
المتكلم الشهير، الشيخ أبو عبدالله محمد بن محمد بن نعمان،
المعروف بالشيخ المفيد الذي كان تتلمذ عنده الشريف الرضي
منذ طفولته، في كتابه، الإرشاد، ص ١٣٥ ٨.
ابوسعيد المنصور، الوزير الآبي، (القرن الرابع: ٤٢١هـ) في
كتابه؛ نثر الدرر، و نزهة الأديب. ٩. العالم المعتزلي، محمد بن
عبد الوهاب، أبو علي الجبائي (٣٠٣هـ)، نقلاً عن الشيخ
إبراهيم القطيفي في كتابه «الفرقة الناجية».

والجدير بالذكر أنَّ صاحب العقد الفريد (نقلاً عن الشيخ
إبراهيم القطيفي في كتابه، الفرقة الناجية) الذي كان معروفاً
في عداوته لعلي عليه السَّلام قد ذكر هذه الخطبة في الجزء
الرابع لكنّها قد حذفت منه لأسباب ليست واضحة لدينا ولعلَّ
الشيخ القطيفي قد أخطأ في كلامه (الشهرستاني،
١٣٦٤هـ.ش: ٧٢/ جعفرى، بدون تاريخ: ٨١)

إذن لا يستطيع المنصف أن ينكر هذه الخطبة لعلي عليه
السَّلام.

الثاني: الإمام عليه السَّلام لم يكن مماشياً في سبيل الحقّ
و العادلة بل كان صريح اللهجة و سديد القول في ذكر
كلام الحق و لو كان مرأ؛ لأنّه كان إمام المسلمين و رأى

الرابع: إذا ما تأملنا في هذه الخطبة فوجدنا أن أسلوبه لا يختلف عن أسلوب الإمام في بقية الخطب بحيث نحس فيها كل الخصائص التي تثبت هذا الافتراض إثباتاً قاطعاً.

الخامس: وهناك دلائل أخرى تشير إلى أن هذه الخطبة لعليّ (عليه السلام) و هنا نستمع إلى قول ابن ميثم البحراني حيث يحدثنا عن تلك الدلائل قائلاً:

«إن هذه الخطبة و ما يشبهها ممّا يتضمّن شكايته في أمر الخلافة قد شكائه في هذا الأمر أصلاً، و منهم من نسب هذه الخطبة خاصّة إلى السيد الرّضي رحمه الله. و الحقّ أنّ ذلك إفراط في القول لأنّ المنافسة التي كانت بين الصحابة في أمر الخلافة معلومة بالضرورة لكلّ من سمع أخبارهم، و تشاجرهم في السقيفة، و تخلّف عليّ و وجوه بني هاشم عن البيعة أمر ظاهر لا يدفعه إلّا جاهل أو معاند، و إذا ثبت أنه عليه السلام نافس في هذا الأمر، كان الظنّ غالباً بوجود الشكاية منه، و ان لم يسمع ذلك منه، فضلاً عن أن الشكاية بلغت مبلغ التواتر المعنويّ في الألفاظ شهرتها، و كثرتها تعلم بالضرورة أمّا لا تكون بأسرها كذباً بل لابدّ أن يصدق بعضها فثبتت فيه الشكاية على أن هذه الخطبة نقلها من يوثق به من الأدباء والعلماء قبل مولد الرّضيّ بمدة و وجدت بها نسخة موثوقاً بنقلها، عليها خطّ الوزير ابن الفرات و كان قبل مولد الرّضيّ بنيف و ستين سنة و...» (ابن ميثم البحراني، ١٤٠٨ هـ.ق-١٣٦٦ هـ.ش: ٩١).

و هذا هو «صبحي الصالح» يقول عن أسباب ذلك النقد و التعريض مشيراً إلى نكته هامة أخرى:

«ثمّ لابدّ لدارس «التهج» أن يكون لنفسه صورة حقيقية عن تلك الحقبة من تاريخ المسلمين، ليستنبط

البواعث النفسية التي حملت عليّاً [عليه السلام] على الإكثار في خطبه من النقد والتعريض والتفريع، والتذمّر والشكوى، فقد عاندته الأيام، و عجّت خلافته عجباً بالأحداث المريعة، وخابت آماله في تحقيق الإصلاح. فهل من عجب إذا استغرقت معاني النقد اللاذع و التأنيب الجارح معظم خطبه و مناظراته، و حتّى رسائله إلى منافسيه والمتمرّدين عليه؟! (الصالح، بدون تاريخ: ١٠).

و أمّا القول الفصل في نسبة التهج إلى الإمام (عليه السلام) فهو ما يقوله العلامة، محمد جواد مغنية، صاحب «في ظلال نهج البلاغة»:

القول الفصل في نسبة النهج إلى الإمام هو أن ننظر و نحكم ماجاء فيه على أساس كتاب الله، فما وافق منه الكتاب فهو من قول الإمام، لأنّه مع القرآن، والقرآن معه، و ماخالفه فلا علاقة له بالإمام من قريب أو بعيد. وقد تواتر عن أهل البيت [عليهم السلام] قولهم:

«لاتقبلوا علينا خلاف القرآن، فإنّا إن تحدّثنا بموافقة القرآن والسنة، إنّنا عن الله، و عن رسوله نخدث، ولا نقول: قال فلان وفلان، فإذا أتاكم من يحدثكم بخلاف ذلك فردّوه، إنّ لكلامنا حقيقة، و إنّ عليه لنوراً، فما لاحقيقة له، ولانور عليه ذاك قول الشيطان».

و مامن كلمة في نهج البلاغة إلّا ودلّ عليها القرآن بالتفصيل أو الإجمال مع العلم بأن كلام الله قد تفرّد بخصائص كثيرة لا يشاركه فيها كلام البشر أيّا كان قائله، و هذه الحقيقة يدركها كلّ من «كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد» (مغنية، ١٩٧٩م، ج ١: ٨-٩).

و أحسن وأدلّ من هذا هو قول الإمام (عليه السّلام) نفسه في فضائل عترة النّبي:

«هم موضع سرّه، و ملجأ أمره، و عيّنة علمه، و مؤئل حكمه، و كهوف كتبه، و جبال دينه، بهم أقام انحناء ظهره، و أذهب ارتعاد فرائصه...» (الإمام عليّ ١٣٧٩ هـ. ش: خ ٤٤/٢)

و منه أيضاً حيث يشير إلى خصائص أهل البيت (عليهم السّلام):

«بنا اهتديتم في الظلماء، و تسنّمتم ذروة العلياء، و بنا أفرجتم عن السّرار...» (نفس المصدر: خ ٤٨/٤)

و إنّ خير مثال يصوّر لنا بلاغة أهل البيت (عليهم السّلام)، قوله:

«إنّا لأمرأ الكلام، و فينا تنشبت غرؤفه، و عليّنا تهذّلت غصونّه» (نفس المصدر: خ ٢٣٣: ٤٧٠)

النتيجة

١. بما أنّ خطب النهج أو أكثرها مدوّنة في مصادر الشيعة والسنة من قبل أن يولد الشريف الرضي و دافع عنها العلماء من كلا الفريقين، فيبدو أنّ الدكتور ضيف كان ينظر إلى النهج في ضوء عقيدة تمتاز بالترعة الطائفية المذهبية والعصبية الفكرية بحيث كأنه صنع لنفسه سجناً من الظنّ والشك والعصبية و يعيش فيها عيشة راضية. في الحقيقة أنّ هذه الشبهات صدرت منه بدافع العصبية العمياء والجهل المتراكم في تعريف نهج البلاغة. والتعصب والعناد يورد- كما يقول العطاردي (١٣٦٠ هـ. ش: ١٨) يورد الإنسان موارد الهلكة و يخرجّه عن طريق الحقّ و الصّواب.

٢. في رأى الدكتور ضيف، النهج إمّا أن يكون كله مصنوعاً منحولاً، أو بعضه- كما يقول ابن أبي الحديد و

هو يردّ على هذه الشبهة: ابن أبي الحديد، ١٩٦٥ م، ١٣٨٥ هـ، ج ١٠: ١٢٨-١٢٩؛ والأوّل باطل بالضرورة، لأنّ صحة إسناد معظمه إلى أمير المؤمنين (عليه السّلام) معلوم بالضرورة (التواتر في إسناده). بما نقله المؤرخون من الشيعة و السنة. والثاني أيضاً باطل: لأنّ من قد أنسّ بالكلام والخطابة و شدّاً طرفاً من علم البيان و صار له ذوق في هذا الباب؛ لا بدّ أن يفرّق بين الكلام الركيك والفصيح، و بين الفصيح والأفصح، و بين الأصل والمؤدّد، فإذا تأملنا في نهج البلاغة فنجدّه كلّ ماءً واحداً، و نفساً واحداً، و أسلوباً واحداً، كالجسم البسيط الذي ليس بعضٌ من أبعاضه مخالفاً لباقي الأبعاض في الماهية، وكالقرآن العزيز، أوّله كأوسطه، و أوسطه كآخره، و كلّ سورة منه، و كلّ آية مماثلة في المأخذ والمذهب والفنّ والطريق والنظم لباقي الآيات والسّور؛ و لو كان بعض نهج البلاغة منحولاً و بعضه صحيحاً، لم يكن ذلك كذلك؛ فقد يظهر لنا بهذا البرهان الواضح ضلال مَنْ زعم أنّ هذا الكتاب أو بعضه منحول إلى الإمام عليه السّلام. و هكذا حصّص الحقّ فظهر فساد قوله و بطلان رأيه حول النهج.

المصادر

- [١] القرآن الكريم.
- [٢] الإمام عليّ عليه السّلام (١٣٧٩ هـ. ش)؛ نهج البلاغة، ترجمة؛ محمّد دشتي، ط ١٣، قم، الهادي.
- [٣] آل كاشف الغطاء، هادي (١٤١٦ هـ. ق)؛ مدارك نهج البلاغة و دفع الشبهات عنه، بيروت، دارالأندلس.
- [٤] آل ياسين، محمد حسين (١٣٦٠ هـ. ش) المن نهج البلاغة؟ ترجمة: محمود عابدي، الطبعة الأولى، طهران، بنياد نهج البلاغة.

- [٥] أحمد أمين (١٩٦٩م)؛ فجر الإسلام، الطبعة العاشرة، بيروت، دارالكتاب العربي.
- [٦] الأسد، ناصر الدين (١٩٦٩م)؛ مصادر الشعر الجاهلي و قيمتها التاريخية، الطبعة الرابعة، مصر، دارالمعارف.
- [٧] ابن أبي الحديد المعتزلي، عز الدين عبد الحميد (١٩٦٥م-١٣٨٥هـ)؛ شرح نهج البلاغة، تحقيق؛ محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية و منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي بقم ١٤٠٤هـ.
- [٨] ابن تغري بردي الأتابكي، جمال الدين أبو الحسن (بدون تاريخ)؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
- [٩] ابن خلّكان، أبو العباس، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (١٣٦٤هـ.ش)؛ وفيات الأعيان، الطبعة الثانية، قم، منشورات الشريف الرضي.
- [١٠] ابن العماد الحنبلي، أبو الفداء أبو الحَيّ (بدون تاريخ)؛ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دارالكتاب الإسلامية.
- [١١] ابن ميثم البحرائي، كمال الدين ميثم بن علي (١٤٠٨ هـ.ق - ١٣٦٦ هـ.ش)؛ اختيار مصباح السالكين (شرح نهج البلاغة الوسيط)، تحقيق؛ محمد هادي الأميني، الطبعة الأولى، مشهد، مؤسسة الطبع والنشر التابعة للآستانة الرضوية المقدسة.
- [١٢] —، (بدون تاريخ)؛ شرح نهج البلاغة، منشورات دفتر نشر الكتاب.
- [١٣] ابن واضح اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن جعفر (بدون تاريخ)؛ مشاكلة الناس لزمانهم، الطبعة الأولى، بيروت، دارالكتاب الجديد.
- [١٤] اسفندياري محمد (١٣٨٠هـ.ش)؛ من نهج البلاغة الأول إلى نهج البلاغة الثاني، صحيفة گلستان قرآن، وزارة الثقافة و الإرشاد الإسلاميين، العدد الجديد، رقم ٩٦ (ص ٢٧-٣٥).
- [١٥] بروكلمان، كارل (١٩٥٩م تاريخ المقدمة ١٩٩٣م تاريخ الترجمة)؛ تاريخ الأدب العربي، ترجمة: عبد الحليم النجار، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- [١٦] البستاني، محمود (١٤١٣هـ.ق)؛ تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، الطبعة الأولى، مشهد، آستان قدس رضوي.
- [١٧] بيضون، لبيب (١٤٠٨هـ.ق)؛ تصنيف نهج البلاغة، الطبعة الثانية، طهران، مركز النشر مكتب الإعلام الإسلامي.
- [١٨] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (١٩٩٨م - ١٤٠٨ هـ.ق)؛ البيان و التبيين، تحقيق؛ علي أبو ملحم، الطبعة الأولى، بيروت، دارومكتبة الهلال.
- [١٩] جرجي زيدان (١٩١١-١٩١٤م)؛ تاريخ آداب اللغة العربية، راجعها و علق عليها؛ شوقي ضيف، القاهرة، دارالهلال.
- [٢٠] جعفرى، سيد محمد مهدى (بدون تاريخ)؛ پژوهشى در اسناد و مدارك نهج البلاغة، طهران، قلم.
- [٢١] —، (١٣٨٠هـ.ش)؛ منابع و مستندات نهج البلاغة، مجله كتابدارى، دفتر ٣٦ (ص ٧-٢٥).
- [٢٢] الحسيني، عبد الزهراء (١٣٩٥ هـ.ق)؛ مصادر نهج البلاغة و أسانيدها، بيروت، مؤسسة أعلمى.
- [٢٣] حنفي داود، حامد (١٤٠١هـ)؛ نهج البلاغة، توثيقه و نسبته إلى الإمام علي (عليه السلام)، الطبعة الأولى، مؤسسة نهج البلاغة.

- [٢٤] الحكيمى، الشيخ محمدرضا (١٤١٥هـ.ق- هـ.ش)؛ سلونى قبل أن تفقدونى (من مختصات مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام، طبعة المكرر، طهران، الصدر.
- [٢٥] دشتي، محمد (١٣٦٨هـ.ش)؛ مناهج البحث في اسناد نهج البلاغة، الطبعة الأولى، قم، نشر إمام على عليه السلام.
- [٢٦] دلشاد طهراني، مصطفى (١٣٨٥هـ.ش)؛ ماه مهرپرور (تربيت در نهج البلاغة؛ مقدّمة المؤلف) الطبعة الثالثة، طهران، دريا.
- [٢٧] —، (١٣٨٠هـ.ش)؛ شناخت نهج البلاغة، نشر گلستان قرآن، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، الاعداد الجديد، رقم ٩٦ (ص ٢١-١٤).
- [٢٨] الزركلى، خيرالدين (١٩٩٠م)؛ الأعلام، الطبعة التاسعة، بيروت، دارالعلم للملايين.
- [٢٩] الزيات، أحمدحسن (٢٠٠٥م- ١٤٢٥هـ)؛ تاريخ الأدب العربى، الطبعة التاسعة، بيروت، دار النهضة.
- [٣٠] سبزيان پور، وحيد (٢٠٠٨م- ١٤٢٩هـ.ق)؛ تيارات التدليس في اسناد كلمات الإمام علي عليه السلام من الجاحظ إلى لوئيس معلوف، مجلة العلوم الإنسانية، طهران، جامعة تربيت مدرّس، العدد ١٥ (٣) (ص ٧٧-٨٦).
- [٣١] شوقي ضيف (١٤٢٧هـ.ق و تاريخ المقدّمة؛ ١٩٦٣)؛ تاريخ الأدب العربى (العصر الإسلامى)، الطبعة الثانية، قم، ذوى القربى.
- [٣٢] —، (١٩٤٦م: تاريخ المقدّمة)؛ الفنّ و مذهبها في النثر العربى، الطبعة الثانية عشرة، مصر، دارالمعارف.
- [٣٣] الشهرستاني، سيدهبة الدين (١٣٦٤هـ.ش)؛ ماهو نهج البلاغة، ترجمة: ميرزاده أهرى، مقدمه، تصحيح و تحشية، علي دواني، قم، اسلامي.
- [٣٤] شيعي، حميد رضا (١٣٧٩هـ.ش)؛ آشنائي با نهج البلاغة، مقدّمة: آيت الله محمدواعظ زاده خراساني، الطبعة الأولى، طهران، سمت.
- [٣٥] الصالح، صبحى (بدون تاريخ)؛ نهج البلاغة، قم، دارالحجرة.
- [٣٦] الصفدي، صلاح الدين خليل بن إيبك (١٩٦٢م- ١٣٨١هـ)؛ الوافي بالوفيات، الطبعة الثانية، باعتناء؛ هلموت ريتير، دارالنشر فرانزشتاينيرقيسبادن.
- [٣٧] عبده، محمد (١٩٩٠ م- ١٤١٠هـ)؛ شرح نهج البلاغة، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسه المعارف.
- [٣٨] العطاردى، عزيزالله (١٣٧٥ هـ.ش)؛ شرح نهج البلاغة، الطبعة الأولى، طهران، بنياد نهج البلاغة وعطار.
- [٣٩] —، (١٣٦٠هـ.ش)؛ تقديم و جمع كلام علي(ع)، الذكرى الألفية لنهج البلاغة، الطبعة الأولى، طهران، بنياد نهج البلاغة.
- [٤٠] العقاد، عباس محمود (بدون تاريخ)؛ عبقرية الإمام علي رضى الله عنه.
- [٤١] الفاخوري، حنا (١٣٨٠هـ.ش)؛ تاريخ الأدب العربى، الطبعة الثانية، طهران، توس.
- [٤٢] —، (١٤٢٧هـ.ق- ١٣٨٥هـ.ش)؛ الجامع في تاريخ الأدب العربى (الأدب القديم)؛ الطبعة الثانية، قم، ذوى القربى.
- [٤٣] مبارك، زكى (١٩٣٤م- ١٣٥٢هـ)؛ النثر الفنّي في القرن الرابع، الطبعة الثانية، مصر، مطبعة السعادة بمصر.
- [٤٤] —، (٢٠٠٧م- ١٣٢٧هـ.ق)؛ عبقرية الشريف الرّضي، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية.

في الدِّفاع عن نهج البلاغة و الردّ على شبهات ... _____ مجلة العلوم الانسانية الدولية، ١٤٣١/٢٠١٠ هـ.ق، العدد ١٧ (٤)

- [٤٥] الحمودي، محمداقر (١٣٩٧م-١٣٨٥هـ)؛ نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات و مؤسسة التضامن الفكري.
- [٤٦] المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (بدون تاريخ)؛ مروج الذهب ومعادن الجوهر، الطبعة الثانية، إيران- قم، دارالهجرة.
- [٤٧] مغنية، محمدجواد (١٩٧٩م)؛ في ظلال نهج البلاغة، الطبعة الثالثة، بيروت، دارالعلم للملأين.
- [٤٨] مطهری، مرتضی (١٣٦٨هـ.ش)؛ سیری در نهج البلاغة، الطبعة السادسة، طهران، صدرا.
- [٤٩] الهاشمي الخوئي، ميرزا حبيب الله (بدون تاريخ)؛ منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، الطبعة الرابعة، قم، دارالهجرة.

در دفاع از نهج البلاغه و پاسخی به شبهات دکتر شوقی ضیف

تورج زینی‌وند^۱

تاریخ دریافت: ۱۳۸۸/۷/۱۸

تاریخ پذیرش: ۱۳۸۹/۱/۳۰

دکتر شوقی ضیف در برخی از آثارش بر این دیدگاه است که کتاب نهج البلاغه از آثار و نوشته های شریف رضی می باشد نه حضرت علی (علیه السلام). ایشان در این نظریه سست برای اثبات برهان های خود و به عبارتی برای اثبات شبهات خویش، به ذکر دلایلی درون متنی و بیرون متنی روی آورده است.

نکته مهمی که آن نویسنده در نوشته هایش به روشنی بر آن تاکید ورزیده است این است که نهج البلاغه نوشته شریف رضی بوده، اما ایشان آن را به حضرت علی (علیه السلام) اسناد داده است. بنابراین، او با قاطعیت بر این عقیده است که جز با تکیه بر منابع نخستین، نمی توان به سخنان نقل شده از آن حضرت در نهج البلاغه موجود، اعتماد نمود.

این پژوهشگر در این گفتار برآن است تا در ژرفای اندیشه های دکتر شوقی ضیف به جستجو پرداخته و تصویر روشنی از حقیقت و درستی نهج البلاغه و باطل بودن اندیشه های آن مؤلف، ارائه دهد. حقیقتی که دکتر شوقی ضیف آن را در پرتو روش معروف «دکارت» وارونه تفسیر نموده است، از ویژگی های بارزی همچون، تردید، تناقض، سرگردانی، پراکنده گویی، دشمنی، عصبیت و نداشتن برهان و استدلال، برخوردار است.

واژگان کلیدی: نهج البلاغه، شوقی ضیف، انتحال.

۱. استادیار دانشگاه رازی کرمانشاه